الشريف أبو الفتوح الحسن ودوره في خدمة الدولة الفاطمية

نوره صالح الثبيتي العتيبي
جامعة الملك سعود – الرياض

ملخص:
يعد الشريف أبو الفتوح واحد من أشهر اشراف مكة المكرمة ابان العصر الإسلامي الوسيط، والذي شهد صراعا بين الخلافة العباسية والفاطمية على منابر الحرمين. ولعب أبو الفتوح دورا كبيرا في سياسة وعلاقة مكة المكرمة بالقاهرة. وقام بالعديد من الإنجازات العسكرية فخرج ليأدب بنى المهنا بالمدينة المنورة، وقد أضاف أراضي أخرى إلى ممتلكاته فضم حلى. وعاشت مكة المكرمة خصوصا وبلاد الحجاز عامة في عهده في نوع من الهدوء والسلام لحزمه، وحسن سياسته.
الكلمات المفتاحية: اشراف، ال مهنا، فاطميين، عبيديين، عباسيين، منابر

المقدمة:
تعد مكة المكرمة من اهم بقاع العالم الإسلامي، وكسبت مكانة كبيرة خلال فترات التاريخ الإسلامي، ومن ضمنها فترة هذه الدراسة مابين عامي 384 -430هـ. وعلى الرغم من انتقال العاصمة السياسية إلى مدن أخرى وذلك منذ عهد علي بن ابي طالب –كرم الله وجهه–، الا ان ذلك لم يقلل من دور وشأن مكة في العالم الإسلامي، فلم تكن الحكومات الإسلامية في غنى عن دعم منابرها السياسية، وخصوصا الخلافتين العباسية والفاطمية. فقد قامت بين بغداد والقاهرة منافسة سياسة على خلافة المسلمين، والاستئثار بمنصب الزعامة الروحي، فكان لابدا من الحصول على الدعم المعنوي، واضفاء الصبغة الشرعية، على الخليفة العباسي او الفاطمي، امام الشعوب الإسلامية عن طريق منابر الحرم المكي الشريف.
وكان الاشراف بمكة المكرمة والمدينة المنورة هدفا من اهداف السياسة العباسية والفاطمية، فكلا القوتان كانتا حريصتان على كسب ود وتأيد الاشراف لهم، وخصوصا اشراف مكة.
وفي هذه الدراسة سنحاول تقصي سياسة الشريف أبو الفتوح، وعلاقته بالخلافة الفاطمية، و دوره في خدمة مصالحها بالمنطقة. مستعينين بأشهر المصادر التي تحدثت عن تاريخ مكة في تلك الحقبة، ولعل من أبرزها مؤلف النجم ابن الفهد اتحاف الورى باخبار ام القرى، بالإضافة لبعض مؤلفات الفاسي.

تولية شرافة مكة المكرمة:

تولى زمام الشرافة بمكة الشريف أبو الفتوح الحسن بن جعفر عام 384هـ، وذلك بعد وفاة أخيه الشريف عيسى بن جعفر، ودامت فترة شرافته زهاء ستة وأربعين عاما. ([i]) وتعتبر فترة شرافته من الحوادث الهامة بتاريخ مكة المكرمة ابان العصر الإسلامي الوسيط، وذلك لإنجازاته السياسية والعسكرية، ونشاطه، وعلاقته المتينة، بالخلافة الفاطمة، احدى القوى الإسلامية الكبرى آنذاك. وقد عاصر أبو الفتوح شخصيات شهيرة من الخلفاء الفاطميين والعباسيين. ([1])

ضم أبو الفتوح للمدينة الى ممتلكاته:

استفتح أولى سنوات عهده بأن استولى على المدينة، واقصى عن إمرتها بنى المهنا الحسينيين عام 390هـ. وذلك بناء على امر من الحاكم الفاطمي. ([ii]) ومن الجدير بالذكر ان من جملة الأسباب التي دفعته إلى الاستيلاء على المدينة، ان بني مهنا قد حولوا المدينة ملجأ لقطاع الطرق الفارين من قبضة أبو الفتوح. ([iii])

فالشريف أبو الفتوح كان حازما في سياسته، وحريصا على فرض الامن والأمان في المنطقة، وذلك لكي لا يخسر ثقة السلطات الإسلامية به، وخصوصا الفاطمية، فقد كانت القوافل الحجية تتعرض للسلب والنهب، وفي حالات كثيرة لا يسلم افرادها، والذين هم من رعايا القوى الإسلامية من القتل على ايدي قطاع الطرق.

علاقته بالفاطميين:

يعد أبو الفتوح من أكثر اشراف مكة استقرار في ولائه للفاطميين، فعلى الرغم من عرض الدولة العباسية الضخم له في عام 381هـ، بأن تصبح امارة الحجاز وراثية لعقبه، الا انه مال إلى العزيز الفاطمي، الذي كافئه بالأموال والخلع. ([iv])

وفي عام 386هـ عادت الخلافة العباسية لمحاولة استمالة أبو الفتوح إليها، مستغلة فرصة وفاة العزيز الفاطمي الا ان أبا الفتوح رد على بني العباس بأن الخطبة في كلا الحرمين للحاكم الفاطمي. ([v])

ولعل الخلافة الفاطمية كانت على قدر من القوة المادية والعسكرية، تجعل أبا الفتوح لا يفكر في عصيانها، وبالمقابل كانت الخلافة العباسية تمر بحالة من الضعف السياسي وحتى المادي.

ويبدو ان سياسة خلفاء القاهرة نحو اشراف مكة، كانت مرنة معهم، فتكتفي بالخطبة على المنابر، وتترك الشؤون الداخلية لهم، فلم تكن تضايقهم بالتدخلات، وهذا زاد التقارب بين شريف مكة وخليفة مصر.

حادثة محاولة نبش قبر النبي – صلي الله عليه وسلم– وإزاحة ال مهنا عن امارة المدينة المنورة:

([1]) انظر شكل (1) اخر الدراسة

كان أبو الفتوح مخلصا للبلاط الفاطمي، وحريصا على نيل رضا خلفاء مصر، ففي عام 390هـ، زين بعض الزنادقة للحاكم الفاطمي ان يرسل من ينبش قبر النبي – صلي الله عليه وسلم – وصاحبيه، وينقل رفاته الطاهر إلى عاصمته، وبذلك يحول مسار شد رحال المسلمين إلى القاهرة.وقد أرسل إلى أبو الفتوح يكلفه بتلك المهمة فخرج أبو الفتوح، ويبدو ان الدافع الأساسي الذي حمله على الخروج، هو طموحه بإزاحة بني مهنا عن حكم المدينة، والاستئثار بها، وقد وصلته انباء انهم قدحوا في نسب خلفاء القاهرة. مما زاد من قوة الحجة لكي يسير إلى المدينة المنورة، قاصدا بنى مهنا.وفي المدينة واجه أبو الفتوح أحد الصالحين، وهو قارئ يعرف بالركباني، وقد وعظة بمغبة عمله هذا، وتعرض أبو الفتوح لمواجهة عنيفة ومملوءة بالسخط من المسلمين هناك، كادت ان تفضي بقتله هو ومن معه. وما ان حل الظلام حتى هبت رياح قوية زلزلت ارجاء المدينة، وأثارت الذعر في النفوس، وقد تحجج أبو الفتوح عند الحاكم بعدم نبش القبور الكريمة بتلك الرياح. ([vi])

ومن الجدير بالإشارة إليه هذه الحادثة في اهم مؤلفات مؤرخي مكة البارزين بعد الازرقي، مثل الفاسي، وابن ظهيرة، والدحلان. فالفاسي أشار بأن سبب زحف أبو الفتوح للمدينة، هو ما وصله من اخبار عن قطع بني مهنا الخطبة عن الفاطميين. ([vii]) ومن الأرجح انه لم يخرج أساسا لنبش القبور الكريمة، انما كان هدفه تأديب بني مهنا لقطعهم الخطبة، وطعنهم في نسب الفاطميين، واقصاءهم عن شرافة المدينة. وحتى ان كان قد وصله فعلا امر من الحاكم الفاطمي بذلك، فقد اتخذ امر الحاكم مجرد حجة للزحف على المدينة، وإرضاء للحاكم، واتقاء لبطشه، وللنيل من آل مهنا، فضلا عن اطماعه

عصيان أبو الفتوح واعلانه لنفسه خليفة:

قام الحاكم الفاطمي بمحاولة التخلص من أحد وزراءه وهو أبو القاسم بن المغربي،وتمكن من قتل والده، فيما تمكن الوزير من الفرار. ولجأ إلى قبيلة آل الجراح، واستجار بهم، واجاروه، وقد ظفروا بحملة عسكرية، أرسلها الحاكم لتعقب الوزير الفار.وفي اثناء بقاء الوزير أبا القاسم في كنف وحماية آل الجراح، قام بتحريضهم على مبايعة شريف مكة أبو الفتوح، وخلع طاعة الحاكم الفاطمي، حيث بين لزعمائهم انهم قطعوا طاعتهم للحاكم، وليس هناك من سبيل للرجوع، فعليهم ان يتخذوا خطوة جريئة للأمام، ويبايعوا امير الحجاز أبو الفتوح. ([viii])

وقد استجابوا لتحريضاته تلك.ومن الواضح ان الانتقام كان هو دافع ذلك الوزير ليحرض آل الجراح على تلك الخطوة السياسية الخطرة، التي سوف تقلب الموازيين رأسا على عقب ضد مصالح الفاطميين.

وبعد ان فرغ الوزير أبو القاسم من آل الجراح، توجه صوب مكة، قاصدا أبو الفتوح ليزين له المطالبة بالخلافة. ([ix])ولكن أبو الفتوح تحجج له بسوء الأحوال المادية والاقتصادية. الا ان الوزير قد أشار عليه بأن يستولي على الأموال والكنوز التي في جوف الكعبة المشرفة. بالإضافة إلى تركة أحد التجار كان قد توفى بجدة، وضرب له عملة

سميت بالفتحية. ([x]) وبعدها أقدم أبو الفتوح على خطوة أكثر جراءة، فخطب لنفسه بالخلافة، وتلقب بالراشد، وبايعه شيوخ بني الحسين وغيرهم. وخرج أبو الفتوح قاصدا الرملة ([xi]) ليأخذ البيعة من آل الجراح في موكب مهيب من ألف عبد، ومعه بنو عمه. وكان متوشحا سيفا ادعي انه ذو القفار، ومعه قضيب زعم انه لرسول الله –صلي لله عليه وسلم–. ومن الواضح انه أراد بهذه الشكليات ان يكسب تأييد وود الجموع التي حشدت له لتبايعه بالخلافة. وقد نادي هناك بأقامة العدل، والامر بالمعروف، والنهي عن المنكر. ([xii])

كان الموقف يتطلب ردة فعل حكيمة من الحاكم الفاطمي، اذ انه مدرك ان أبا الفتوح اهل للخلافة من حيث ما يتمتع به من شخصية قيادية، ونسب علوي ووجود المنبر السياسي في زمام قبضته، في مكة فيدعم بالخطبة خلافته. فقام الحاكم باستمالة آل الجراح بجزل الأموال، وكسب ود زعيمهم حسان بن مفرج، مما دفعهم للتخلي عن مساندة أبو الفتوح. ([xiii])

ولعل الحاكم هو من نصب ابن عم أبي الفتوح الشريف أبو الطيب عبد الرحمن بن قاسم بن أبي الفاتك الحسني اميرا على مكة والمدينة، كنوع من الضغط على ابي الفتوح ليعود إلى طاعته. وحينما عاد أبو الفتوح إلى عاصمته مستعيدا سلطته، بعد ان توسط آل الجراح له عند الحاكم الفاطمي. بعداعتذار قدمه للخليفة الفاطمي. وقد عفا عنه الحاكم الذي لم يرغب في خسارة والي ذو كفاءة قديرة مثل ابى الفتوح. وتكفل آل الجراح بأرسال خفارة من قبيلة طيئ معه لحمايته اثناء طريق عودته. ([xiv])

وبعد وصول أبو الفتوح إلى مقر امارته فر الشريف أبو الطيب منه إلى موضع يقال له أذنة، خوفا من بطشه وترك له مكة.

ذكر النويري ان لأبو الفتوح اخا قد استغل فرصة عصيانه، وتخلي آل الجراح عنه، فحاول ان يستولي على السلطة، وقد اثار ذلك مخاوف أبو الفتوح أكثر بأن ينجح أخيه باستئصال الحكم منه. فطلب من آل الجراح مساعدته للعودة إلى مكة وكان ذلك عام 403هـ. ([xv])

الا ان ابن فهد يذكر في كتابه اتحاف الورى ان هذه الواقعة حصلت عام 401هـ، وهو الأرجح على الصحة. حيث أقدم الحاكم احمد بن ابي العلاء في عام 402هـ على اعدام أحد موالي أبي الفتوح كان قد قام بتجنيده كجاسوس له عنده. ومن المحتمل ان يكون ذلك من تبعيات وتراكمات حادثة تمرده. ([xvi])

يبدو ان السبب الأرجح لشق أبي الفتوح لعصا الطاعة على الفاطميين، وتأييد القبائل له، لا يبدو انه لمجرد تحريضات الوزير فقد أرسل الحاكم الفاطمي إلى أبى الفتوح سجلا يحمل قدحا في أمهات المؤمنين والصحابة – ﷺ اجمعين–، وامر أبو الفتوح ان يقرأه على الملأ ،ولكن حشود المسلمين الغاضبة حالت دون ذلك. فثارت غيرة أبو الفتوح على دين الله وعرض نبيه الكريم –ﷺ–، وأعلن بكل شجاعة العصيان، وتنصيب نفسه خليفة، والتجأ

لطلب المشورة من الوزير أبو القاسم الذي فر من بطش وجور الحاكم. ([xvii]) وعفو الحاكم الفاطمي عنه يعد نقطة تؤيد هذه النظرية،إذا انه في موقف المخطئ، ولم يشاء بأن يعاقب أبو الفتوح ،والقبائل التي ايدته لكي لا يثير حفيظة النفوس عليه أكثر.

ضم حلي إلى ممتلكات أمارته:

عادت العلاقات والهدوء بين الشريف ابي الفتوح والخلافة الفاطمية، وأقدم أبو الفتوح على اداء خدمة عسكرية للفاطميينفخرج عام 412هـ للاستيلاء على مدينة حلي ([xviii]) بعدما شق صاحبها عصا الطاعة على صاحب اليمن، الذي لم يكن أساسا مواليا للفاطميين، وبذلك ضعف موقف الحرامي صاحب حلى امام أبو الفتوح الذي تمكن من الاستيلاء على مدينته، وضمها إلى ممتلكاته التي تردد اسم الخليفة الفاطمي على منابر مساجدها. ([xix]) فعصيان صاحب حلى السابق نزع عنه حماية صاحب اليمن، وبذلك تجرد امام مطامح الفاطميين.

وفاته:

وافت المنية الشريف أبا الفتوح عام 430هـ. فتولى ابنه شكر من بعده زمام السلطة. ([xx])وقد شهد عهده تمردات وعصيان للقبائل المحلية، ومنازعات وفتن بمكة، القت بظلالها على الأوضاع الأمنية، فانقطع ركب الحجيج لسنين عدة. ([xxi]) فلم يكن شكر خليفة الشريف أبو الفتوح يشبهه في قوة الشكيمة، وحسن تدبير الأمور. وبوفاة أبو الفتوح انتهى عهد من الهدوء و السلم كانت مكة المكرمة قد عرفته اثناء شرافة أبو الفتوح.

ختاما:

كان الشريف أبو الفتوح من أشهر اشراف مكة المكرمة، والذين ارتبطوا بالخلافة الفاطمية، بعلاقات حسنة. وقد أتت سياسته مع الفاطميين بثمارها، فعاشت مكة عهدا من السلام والهدوء، فضلا عن حصولها على ميرة ومعونات مالية من القاهرة. ولم تكن خدمات أبو الفتوح للفاطميين قاصرة على الصعيد المعنوي، ومنابر الحرم، بل قدم خدماته الحربية لهم، فجرد الحملات ليأدب آل المهنا، ويتعقب قطاع الطرق.

ويبدو ان شريف مكة كان يجد أيضا مصالحه مع الفاطميين، فلم يستمر تمرده ضد الحاكم الفاطمي، بل عاد ليساوي الخلافات، ويتراجع عن العصيان، فلابد انه أدرك حاجته المادية، والسياسية، للخليفة الفاطمي. فاهو يضيف إلى املاكه مناطق جديدة تحت جناح الخلافة الفاطمية، ويكسب دعمها ليضفي الصبغة الشرعية لأعماله الحربية، وكانت الخلافة الفاطمية مستفيدة إلى حد كبير من هذا الشريف الحازم والقوي، فلم يقدم الحاكم على إعدامه او سجنه. ولم يحاول الخلفاء الفاطميين بشكل عام ان يستفزوا الاشراف ويتدخلوا في شؤونهم الخاصة،

لحاجتهم للخطابة السياسية، وخصوصا انها تضفي الصبغة الشرعية عليهم، وهناك من يشكك في صحة انتسابهم لعلي بن ابي طالب –رضى الله عنه–.

شكل (1): الخلفاء العباسيين والفاطميين المعاصرين للشريف أبو الفتوح

الخليفة العباسي	الخليفة الفاطمي
القادر (381 – 422هـ)	العزيز (365 – 386هـ)
القائم (422 – 467هـ)	الحاكم (386 – 411هـ)
	الظاهر (411 - 427هـ)
	المستنصر (427 – 487هـ)

المصادر والمراجع:

[i]) عمر بن فهد بن محمد ابن فهد، اتحاف الورى بأخبار ام القرى، تحقيق: فهيم محمد، القاهرة: مكتبة الخانجى، الطبعة الاولي (1404هـ -1983م)،، ج2، ص 423، محمد بن أحمد الحسني الفاسي المكي تقي الدين الفاسي، العقد الثمين في اخبار البلد الأمين، تحقيق فؤاد سيد و اخرون، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية (1406هـ -1986م)،ج4، ص 69

[ii]) محمد بن أحمد الحسني الفاسي المكي تقي الدين الفاسي، شفاء الغرام باخبار البلد الحرام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، بيروت: الكتاب العربي، الطبعة الأولى (1405هـ -1985م)،ج2، ص 307، الفاسي، العقد الثمين، ج4 ، ص 77

[iii]) احمد بن محمد السباعي، تاريخ مكة دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران، الرياض: مكتبة الملك فهد، (1419هـ -1999م)،ج1 ، ص 227

[iv]) ابن فهد، اتحاف الورى، ج2 ، ص 421

[v]) المصدر السابق، ص 424

[vi]) المصدر السابق، 426 - 427

[vii]) السباعي، تاريخ مكة، ج1، ص 227

[viii]) ابن فهد، اتحاف الورى، ج2 ، ص 437

[ix]) الفاسي، شفاء الغرام، ج2، ص 308

[x]) ابن فهد، اتحاف الورى، ج2، ص 437

[xi]) الرملة: وهي مدينة بفلسطين تقع بالقرب من الساحل البحري. (المقدسي محمد بن احمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص 151)

[xii]) الفاسي، شفاء الغرام، ج2، ص 308

[xiii]) ابن فهد، اتحاف الورى، ط1، ج2 ، ص 439

[xiv]) المصدر السابق، ص 440

[xv]) الفاسي، شفاء الغرام، ج2، ص 309

[xvi]) ابن فهد، اتحاف الورى، ج2 ص 441

[xvii])السباعي،تاريخمكة،ج1،ص227-228

[xviii]) حلي: مدينة يمنية تقع على ساحل البحر الأحمر وبينها وبين مكة مسيرة ثمانية أيام. ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، شهاب الدين، معجم البلدان، بيروت: دار صادر، المجلد الثاني، ص 297

[xix]) ابن فهد، اتحاف الورى، ج،2 ص 446

[xx]) ابي الحسن علي بن ابي الكرم مُحَمَّد بن مُحَمَّد ابن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني ابن الاثير، الكامل في التاريخ، تحقيق: خليل مأمون شيحا، بيروت: دار المعرفة، الطبعة الثالثة (1432هـ -2011م)،ج8 ، ص 41

[xxi]) السباعي، تاريخ مكة، ج1 ، ص 230